سيلڤان بمبا
غرفة التحميض

لم اقل انه اعجبني ؛ قلت انه ادهشني ...
— اوسكار وايلد

كان غرام نتوكو ان يسير عبر شوارع باريس ، بوجهه المشعث الشبيه بوجه حيوان ملتحٍ ومكشر. كان يعي بشاعته، ويشعر بشيء من اللذة الغامضة في عرض وجهه المقرف، حتى انه ما كان ليخفي سروره من اثارة هذه الدهشة المتعثرة عندما يصادف في الشارع اناسا يلتفتون لرؤية هذا الاسود الفارع الطول وهو يبتعد ، بثيابه الفضفاضة التي تعطيه شكلا غير محدود وغير مكتمل ، شكلا سابحا كالاشباح . ومع ذلك فعندما كان المرء يتعرف اليه عن كثب ، كان يدهش في انه لا يعود يشعر باي انزعاج في حضرته . وكان لا بد لهذا المرء ان يعترف بسحره او بالاحرى بجاذبيته الاكيدة .

كان نتوكو يعبد باريس . انه ما زال يذكر ايامه الاولى في هذه المدينة العظيمة. لدى وصوله اليها كان قد احس بشيء من الخيبة . كان يأمل في اكتشاف سفر رائع جميل مجلد بالذهب . وبدلاً من ذلك وجد سماء متجهمة وسخة ، وحيطانا حزينة اظهرت له باريس بمظهر كتاب عتيق في دكان كتبي حقير. ولم تحدث الاعجوبة الا عندما بدأ يقلب صفحات هذا المجلد المستعمل . ففي كل صفحة ، وفي كل سطر منه ، كان يتأثر بالقوة المغناطيسية المنبعثة من النظرات الفارغة لتماثيلها . فكان يعيش تلك العصور الخوالي لتاريخٍ حفظه في المدرسة ، وما زال مجراه يضرب بامواجه المتلاطمة صخرة العصور الحديثة .

لقد كانت مسرات نتوكو الاولى في باريس مسرات الافّاق الذي يكتشف ارضا جديدة . وكان خياله يُقصي عن تعمد آثار العاصمة المعروفة جيدا : فكان بوده ان يكتشف باريسه الخاصة . وكان طول نصبه الاول مترا وسبعين سنتمترا ، يعتمر قبعة ويهدي المارة الشاردين الى الطرق التي احبوا ان يضلوا عنها . وما لبث ان وجد بسرور العشير نصبا انيسا ينهض الى متر وستين سنتمترا يروي غليله من نهرين كبيرين من القهوة والنبيذ الطيب ، ويصدر بسخاء الكلام الساحر والحركة الجذابة ، وهو سعيد بالوجود .

ثم علق بحب المترو ، ووجد فيه رمزا للجسد ، وتخيل باريس في وضع مثير ، ترجّع صدى زفرات عاشقين متوله‍ين .

وبعد قليل من الزمن ، اصبحت آثاره دمى متحركة ، تضحك ببلاهة لدى اقل لمسة ، وتكرر الاشياء ذاتها وكأنها رأس ابرة علقت في خط اسطوانة عتيقة . فكان يتسلى بتكسير هذه الدمى ، كالولد الذي لا يهدأ الا بعد ان يحطم اللعبة الجديدة التي يحاول ان يفهم تركيبها . والواقع انه كان يعتبر وطنه الموقت كلعبة هائلة يحاول ان يفككها وهو يشعر شعورا غامضا بانه يثأر . يثأر ممّ وممّن ؟ كان الجواب يتيه في زاوية من زوايا لا شعوره .

ونهض نتوكو مرة اخرى وسار بخطوات متمهلة نحو صندوق النغم ذي القبضات المعدنية الملتمعة . وجمد امام الآلة واخذ يفتش جيوبه بانتظام . كان الناظر اليه من بعيد يخاله واقفا بلا دفاع امام حيوان يتهدده . واخيرا وجد قطعة من النقود ، اخذ يتفحصها باعتناء ثم ادخلها في الشق . فتصاعدت ضجة مخنوقة ، ذكّرته بنحيب النادبات في بلاده ، حيث يقدمن خدماتهن بلا مقابل الى العائلات المفجوعة ، وحيث تستخدم كل نادبة صورة قريب لها ميت لاستدرار دموعها : وهي تشيد بمزايا الفقيد بين اجهاشتين من البكاء ، مازجة دموعها بدموع العائلة المصابة .

لقد كان مفعول أغنية الجاز التي تتصاعد من جوف صندوق النغم الهائل شبيها تماما بفعول بكاء النادبات .

وتبادلت المرأتان المنحنيتان على مقعديهما على البار والشبيهتان بالمانكان النظرات القصيرة ، وقالت احداهما بصوت خفيض :

« هذه الاسطوانة قد بدأت ترهق اعصابي ! تكاد تكون المرة الخمسين التي يطلبها منذ الظهر » .

فاجابت الثانية ، وكانت تبدو اكثر عملية من الاولى :

« اما انا فاني اعتبر ان الزبون قد اصبح اكثر قابلية للتطبيق . عندما دخل الى هنا ، لم اكن لافكر ابدا ان اقترب منه لشدّ ما كان مظهره متوحشا . لكني اعتقد بان عملي سيبدأ الآن » .

فاستأنفت الاولى بلهجة حميمة :

« انتبهي ، فانه لا يلوح لي سهل المراس بعد : وقد تضيعين وقتك سدى » .

ومن خلال شاشة مترجرجة ، رأى نتوكو احدى « مانكاني الازياء » تتجه نحوه . لم يكن قد اعار ادنى التفاتة الى هذين الكائنين الساكنين . لقد ظنهما في بادىء الامر عنصرا من عناصر الزخرف . لذلك انتفض عندما رأى احدى « مانكاني الازياء » تقف بازائه

وتتكلم . فاجاب نتوكو بسيل من السباب تدفق من فمه كما يتدفق الدرس المحفوظ عن ظهر قلب. فاخذ يومىء باشارات يائسة بعد ان انقطع هذا السيل دون ان تفارق الابتسامة ثغر المرأة . وفهم بانه لا يستطيع التملص قطّ من هذه الدخيلة . الى الجحيم هذه العلقات! ورسم بيده اشارة واضحة المعنى – ولكنها بقيت مكانها . فلم يبق له الا ان يستسلم . فجلست بازائه وهي تبتسم ابتسامة الظفر ، ونادت الندل بلهجة مبتذلة وطلبت مزيجا معقدا من الشراب واخذت تحسوه بلذة وهناء .

وقالت بعد لحظات :

« ما رأيك في اسطوانة غير التي تضعها يا عزيزي ، اسطوانة فيها حياة ؟ الا تريد ان ترقص ؟ »

بعد ذلك ، وهما في غرفته ، ازداد غرابة . واضحت لحيته المشعثة وحركاته المتقطعة تعطيه مظهر انسان آلي لم يعبّأ تماما . واخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، مظهرا تارة فصاحته ، وتارة سخريته ، وكان يستعين بذراعيه ليعطي وزنا لكلامه .

« لعلك تتساءلين لماذا لا انظر الا الى بطنك . في اثناء طفولتي لم اكن ارى الا بطن امي . لم تكن تلبس ثيابا من عند ديور . كانت ثيابها جميعا عبارة عن فوطة صغيرة تربطها حول خصرها . كنت آخر ولد في عائلة غفيرة الابناء – كان لي ثلاثة عشر اخا ، اذا لم تخنّي الذاكرة – وكان بطن امي المرفأ الذي احتمي اليه في اثناء الليل متعلقا بالثديين اللذين منحاني الحياة . لقد كان هذا البطن يدفئني ويحميني من العالم الخارجي . حتى الآن، ان بطن المرأة هو بالنسبة اليّ شيء من الرمز الصوفي تقريبا . فالبطن ، كما لا يخفاك ، هو مركز عدد كبير من الآفات الاجتماعية – كالجوع ، والبرد، والخوف، والملذات المكبوتة. ينبغي ان تري بطون النساء عندنا ! اننا نكابد فقرا لا يمكن تصوره ، ومع ذلك فان لنسائنا كثيرا من الاولاد . تأملي ، ان شخصا مثلي ثمرة ذلك البؤس ! لقد استغربت منذ قليل في الملهى الحاحي في سماع هذا اللحن من الجاز بدون ملل . لماذا ، تظنين ، اكتسح الجاز العالم ؟ أليس لانه ينبع مباشرة من احشاء الآلام البشرية ؟ اعلمي بأني كاثوليكي ، ومع اني لا امارس الطقوس الدينية، فقد يحدث لي ان ادخل الكنيسة احيانا لاستمع الى الموسيقى الدينية . ولكن مع الاسف فان هذه الموسيقى وُضعت لخدمة السماء وانعاش الارواح . ينبغي ان تكون في الكنيسة ايضا موسيقى تعبر عما تشعر به الاجساد. قرأت مؤخرا بان بعض رجال الدين في اوربا الوسطى وضعوا قطعا موسيقية مستوحاة من الجاز، لاجتذاب الشباب . وماذا يهمني من الغاية التي وضعوها نصب اعينهم ؟ المهم ان موسيقى الزنوج قد عادت الى سابق عزّها . انه الحجر المرفوض الذي تحدث عنه المسيح والذي ما لبث ان اصبح رأس الزاوية . أتعرفين ان اللون الاسود يعتبر عندنا في افريقيا لون الخطيئة

واللعنة ، وان التام التام هو آلة الشيطان ؟ ولكن هذا كله يتغير اليوم . فقد دخل التام التام بضجة كبيرة الى الكنيسة الافريقية. ولم نعد نسمع باللغة التي تثقل كاهل المتحدرين من تشام . حتى الفصح اصبح الآن بلون افريقيا التي توصلت الى دحرجة حجر القبر الراقدة تحته » .

وتوقف برهة ليستعيد انفاسه ، فاستغلت المرأة هذه الفرصة لتقول بخجل :

« انك تتكلم كثيرا يا عزيزي . اقترب مني واجلس بجانبي » .

ولكنه اضاف دون ان يبدو عليه انه قد انتبه لهذه المقاطعة :

« لا اريد ان يكون الصليب الرمز الوحيد للآلام البشرية . انظري هناك ، على الحائط ... ما هذا ؟ »

ونظرت المرأة ببلاهة ، فرأت رسما بسيطا بشكل كلاّبة . فتمتمت قائلة :

« اني لا ادرك بوضوح ما عسى ان يكون ذلك » .

فرد ساخرا :

« ها ! ها انكِ من الجنس البشري الاكثر ذكاء في العالم ، ومع ذلك فانك لا تستطيعين ان تفكي رمزا . انتِ اذاً الوحيدة التي تؤلف استثناء للقاعدة . صحيح اننا لسنا في افريقيا . فهناك ليس سوى البيض يستطيعون فتح ابواب الماضي . والسود مهما قالوا : « افتح يا سمسم » فما من شيء ينفتح امامهم . ما ينقص الافريقيين هو ان يعثروا على الكلمة السحرية التي تمكنهم من زحزحة الجبال . كنت اودّ لو انهض بهذه المهمة ، ولكني مع الاسف لا استطيع ذلك! فلديّ مشاكلي الخاصة ، مشاكل خطيرة . فانا كذلك البطل من ابطال تولستوي الذي قال بانه اضحى سجين نفسه . اذاً انت لا تدرين ما يعني ذلك الرمز ؟ ذلك الرمز هو في رأيي صليب العالم الاسود. هذا الكلاّب يمثل في الواقع رجلا اسود يحني ظهره للدلالة على انصياعه او للدلالة على المه من المعاملة السيئة التي يلقاها في هذا العالم . هل تعرفين بان الرجل الاسود يتحدر من المطاط ؟ »

لم تعد المرأة ترتاب بالحقيقة الدامغة بعد الآن . هذا الرجل مجنون . ولم يكن عليها الا ان تقوم بحركة لتبلغ الباب وتفرّ الى الخارج . ولكنها لبثت مكانها لا تفهم شيئا كبيرا من هذه العبارات الغريبة ، وكأنها مأخوذة بهذه الطلاقة .

واستأنف الاسود قائلا :

« اجل اننا نتحدر من المطاط ، وجدّنا اذا اردتِ هو ميشلان ، او بالاحرى هذا الرجل الذي تستطيعين رؤيته على الاعلانات التي تشيد باحدى ماركات دواليب الكاوتشوك. ولهذا السبب استطاع اسلافنا والعبيد المرسلون الى امريكا ان ينحنوا ويتكيفوا مع الاموال المستحدثة بالنسبة اليهم . اتستطيعين ان تتصوري هذا الطوفان الذي حل على حياتنا

البدائية مدة اربعين يوما واربعين ليلة فاغرق معتقداتنا واصنامنا ، ليستبدل بها معتقدات واوثانا جديدة ، آخـذاً في مدّه كل ما كان يؤلف عالمنا المألوف . لو اني اردت ان اسهم في اللعب على الالفاظ المنتشر حـاليا في باريس انتشارا هائلا لبدأت بمقـارنة حياتنا الافريقية قبل التسلل الاوربي بجبنة هولندية ، ولقلت بان حضارتكم كانت فأرا اخذ يقضم هـذه الجبنة حتى جعل منها جبنة الكروبير . اراكِ لا تضحكين من هذا التشبيه . الا تجدينه مسخنا ؟ »

كان الهدوء قد بدأ يعاوده . كان دائما يتصرف هكذا . ففي كل ازمـاته العصبية كان يسكر اولا ، ثم يبحث عن احد الناس ليستخدمه كمستمع وكضحية في الآن ذاته . بالنسبة الى سواه ، لقد حصل المتهم الابيض على منع للمحاكمة ؛ ولكن بالنسبة اليه فان الدعوى ما زالت في مستهلها ، ولم يكن ليدع فرصة تفوته دون ان يكيل اتهاماته كما كان يفعل في تلك الساعة .

وتابع قائلا :

« طوفان مريع . اما الذين بقوا في الفلك فانهم كانوا يقذفون بانفسهم الى اليمّ حتى لا يعاملوا كمتوحشين . واضحى كل الذين في الماء الصاخب يدورون على انفسهم كالجثث الطافية . واعتُبر الذين تركوا امورهم للتقادير وقاموا باقل قسط من الجهد ، اكثر تحضرا من الذين قاوموا التيار . لقد كان ابناء جلدتكِ هم السبب في كل ما حصل » .

فاحتجت المرأة الصبية قائلة :

« ولكن لماذا تنظر اليّ هكذا ؟ انا لم اهتم بالسياسة في يوم من الايام ! »

« تقولين ذلـك لانك تظنين ان الاستعمار هو سياسة ! انك اكثر غباوة ممـا كنت اظن ... قومي معي ! »

فلم تحاول ان تقاومه ، ودخل الاثنان غرفة صغيرة . فاعلن نتوكو :

« هذه غرفة التحميض . فيها اظهّر رسومي . يبدو ان ذلك يدهشك ! انها الحقيقة . انني اعمـل مصورا في احدى المجلات الواسعة الانتشار ، وقـد حصلت على هذا المركز بواسطة بعض معارفي . ولكن ما بكِ ؟ انك ترتجفين ايتها الفتاة . ايكون ان بكِ فزعا من ذي اللحية الزرقاء ؟ »

« انا لست ارتجف » .

« بلى . انتظري قليلا فاشعل الضوء » .

كان يسود الغرفة التي لم تكنس منذ عـدة اشهر ، فوضى لا مثيل لها . فارضها كانت مغطاة بقطع الورق ، وفي زاوية منها ثمـة حويض مـاء . وعلى طاولة عتيقة بعض الاطر الفارغة وآلة تصوير ما تزال في حالة جيدة . وكانت تنبعث من الغرفة رائحة مبهمة تأخذ

يخناق المرء ، او بالاصح يشعر المرء بان عدة روائح تحوم فيها . وفتش نتوكو بسرعة في ادراج الطاولة واخرج كدسة كبيرة من الرسوم.

« انظري — ضحايا ذي اللحية الزرقاء . هيا ، تسلي بتعدادها . ان هذه المجموعة لا تحتوي الا على نساء ، هن بالطبع خليلاتي . انني املك مجموعات اخرى عن اشياء كثيرة غيرها ، ولكنني لن اريكها. انظري جيدا الى الرسوم التي اعطيتك اياها. انظري كيف اني ، انا ذا اللحية السوداء ، اقتلكن : بالسخرية منكن . ان المرء لا يستطيع ان يتحملكن في المستعمرات ، حيث تظنن انفسكن من كوكب غير كوكبنا ، ولكن في بلادكن ... »

فنظرت المرأة بالرغم عنها واحمرت حتى اذنيها . ففي كل رسم جديد كانت تكتشف نساء في اوضاع اكثر جرأة من السابقة . كيف قبلت هؤلاء النسوة بان يتصورن في مثل هذه الاوضاع المخزية ؟ واستغرقت وقتا طويلا قبل ان تستنفد المجموعة. لقد اخذ صدغاها وقلبها تضرب بعنف . وفجأة لم تعد ترى شيئا . وغرقت الغرفة في الظلام، وشعرت المرأة بيدين كبيرتين تركضان على جسدها كأنهما عنكبوتان هائلتان .

قال برنارد كيبه في الهاتف (وبرنارد كيبه هذا كان مدير الصحيفة التي يعمل فيها نتوكو في حقلي الريبورتاج والتصوير) :

« لقد حدث بيننا جدال عنيف . واخيرا ذهب ، مغلقا الباب بعنف ومعلنا بانني لن اراه بعد اليوم . انني لا استطيع حتى الآن ان انسى ما حدث . والواقع اني لم استدعه الا لكي يتكلم على وظيفته. لقد قلت له بان من الجنون ان يكتفي بوظيفة غير ثابتة وقليلة الراتب مثل هذه ، فيحين انه على درجة عالية من الثقافة . وقد ذكرته مرة اخرى ان وظيفة محرر تنتظره في الجريدة — وهي الوظيفة التي وعدتك بها منذ سنة عندما اوصيتني بهذا الشاب الذي قلت عنه بانه من تلاميذك القدماء . لقد رفض واجابني بعبارات لا اغتفرها له. لقد تلفنوا لي مؤخرا من فندقه ليسألوني اذا كان لديّ خبر ما عنه . لقد اختفى بالضبط منذ اليوم الذي حدث بيننا فيه هذا الجدال . لقد بدأت اقلق ، بل اني فكرت بالاتصال بالشرطة . وعندها ذكرتك ايها الاستاذ . فهو يعيش ، او بالاحرى كان يعيش ، في كنفك ، وقد تكون على علم باخباره ؟ »

فاجاب الاستاذ :

« كلا ! مع الاسف . ولكن لا اعتقد بان ثمة موجبا للقلق . لقد كان نتوكو دائما غريب الاطوار ، حتى لأستطيع القول بانه تلقى علومه على متكأ وهو يتسلى . لقد كان

كسولا لدرجة المرض ولكنه كان يتمتع بذاكرة هائلة . وكان دائما مزعجا في طريقته باتباع الدروس وهو شارد اللب ، ومع ذلك فلم يكن ليسقط في يده عندما تلقى عليه الاسئلة الشفهية او الامتحانات الخطية . حتى انه كان يلوح لي انه كان يتردد على الجامعة لتمضية الوقت ليس الا. بانتظار ماذا؟ انني ما زلت القي على نفسي هذا السؤال. ولم يكن يتمتع فقط بذاكرة مدهشة ، بل بذكاء حاد ايضا، وكثيرا ما كان يجري بيننا براز لغوي من الطراز الاول . اجل ، لقد كان هذا الصبي ذكيا ولكن محيرا . ظننت مائة مرة بانني استطعت ان احصل على صورة عن حقيقة طبيعته وشخصيته . ولكن في اليوم التالي كان عليّ ان اعترف ان الصورة التي كوّنتها خاطئة . كان ثمة شيء يفوتني ، وحتى الآن لم اتوصل الى فهمه تماما . ويجب ان اقول لك بانني لم اره منذ اليوم الذي اوصيتك فيه خيرا به بحرارة . وانني لا استغرب ابداً قبوله بتلك الوظيفة التافهة – لقد كان ذلك منه مجرد تحدٍّ . اجل تحدٍّ ! لقد كان ولد الجامعة الشاطر . كان يسمم حياة رفاقه واساتذته . لم يكن له صديق في هذه المؤسسة . لقد كان نتوكو اشد عدوّ للمجتمع عرفته في حياتي . فلم يكن يسهم في الالعاب الرياضية ولا الحفلات الراقصة ، كما لم يكن يذهب الى السينما او الى المسرح ... »

« أتعتقد يا استاذ بان هذا ناتج عن – ماذا اقول – عن شعوره بالعداء نحو البيض؟ »

« ليس بشكل خاص . بل اني في الحق لم افكر بذلك مطلقا . فعلى العموم ، ان الافريقيين الذين يقدمون الى فرنسا يحسنون التخلص بانفسهم من هذه العقدة » .

« حسنا ، ولكن هذا لا يدعنا نتقدم قيد انملة . انني اشعر بشيء من الهاجس حول مصيره » .

ولكن الاستاذ اكد :

« اما انا فلا ! غير انه لاراحة ضميري سأذهب لزيارته في فندقه ، وسأطلعك على ما يجدّ » .

« حسنا ، ولقد كنت قمت انا بهذه الزيارة بنفسي لو لم نفترق على الصورة التي ذكرت » .

« انني افهمك جيدا . سأعلمك بكل ما يتصل بي . الى اللقاء يا عزيزي ! »

كان الاستاذ في مكتبه كالنوتي ، وسط خضم من الكتب . وكان لشقته الواقعة في الطابق الخامس منظر رائع على باريس ، وخاصة على برج ايفل . كان يذرع المكتبة جيئة وذهابا في الروب دي شامبر ، وهو يبدو غارقا في لجة من الافكار . كان يدخن بعصبية ،

ويطفىء لفافاته قبل ان ينتهي منها ، حتى بدت منفضة مكتبه وكأنها مجزرة اعقاب.

واذا بصوت ضئيل خجول يقول بالقرب منه :

« استاذ ، ستبرد الشوربا . لقد تجاوزت الساعة السابعة مساء » .

لم يكن قد سمع وقع خطاها. كان يقول في نفسه مازحا انها تنتمي الى فصيلة الهررة. كانت تصرفاتها تنم عن توازن جسدي ومعنوي يلفت النظر . فلم تكن لتتفوه بكلمة اعلى من الثانية ، او تقوم بحركة اسرع من الاخرى . وكانت تستقبل كل صبيحة جديدة بصفاء لا يتزحزح . وها قد مضت سبع عشرة سنة على معرفة الاستاذ بهذه المرأة الطيبة، وقد توطد بينهما في اثناء المدة الطويلة اقتصاد في الكلمات وفي تبادل العراطف كما يحدث غالبا في الحياة الزوجية او بين الاصدقاء القدماء . ومع ذلك فلم تكن سوى خادمته التي تقوم بكل الاعمال . وكان قد ادخلها في خدمته بفضل اعلان في الجريدة . ففي ذلك الحين ، وبسبب ترمله ، كان بحاجة لخادمة تهتم باعمال المنزل ، ولما لم يتزوج ثانية فقد بقيت عنده .

وقال الاستاذ شاردا :

« الشورباء ، اجل . بامكانها ان تنتظر يا مدام بونيه ! »

وبعد هذه الكلمات ، عاد يذرع الغرفة متمهلا. وبعد برهة وجيزة ، توقف امام مدام بونيه واخذ يتكلم دون ان يتوجه اليها بصورة خاصة ، الامر الذي لم يدهش هذه المرأة الطيبة التي لم تعد تستغرب شيئا في هذا البيت .

قال الاستاذ :

« الواقع ان هذا الشاب لم يكن يعيش الا على التحدّي الموجه الى كل من حوله ، دفاعا عن نفسه . كان يرمي الى تدمير الآخرين ، وقد يكون دمر نفسه في آخر الأمر . الى اي مكان قد يكون التجأ في هذه المدينة الكبيرة ؟ انني لا اريد التفكير في اي افتراض مفجع . ولكن لا يمكنني تصوره يقبل ضيافة اصدقائه » .

وتابع الاستاذ حواره مع نفسه :

« اجل ، اعتقد بان هذا الشاب كان مصابا بهاجس الاضطهاد . والكل يعرف بان هذا الهاجس هو وثيق القرابة بالجنون . والمعروف ان المصابين به يعتقدون دوما بان الناس يريدون الشر بهم على الدوام. فهم ينكمشون وراء ترس مألوف يفرض فيه ان يخفف من حدة الصدمات التي لا توجد الا في مخيلتهم ، او وراء الفزع الذي ينبعث عن السهام التي يقذفونها هم على كل من يدنو منهم . والآن لنفترض ... »

كانت هذه العبارة الاخيرة موجهة بصورة مباشرة الى المرأة .

« والآن لنفترض بانني ذهبت لازورك في منزلك . ولكنك كنت غائبة فخرجت

من المنزل لكن بعد ان دفعني فضولي الى تناول قطعة اثرية زهيدة صغيرة . اتعتبرين ذلك سرقة ؟ »

« هذا راجع الى القطعة ، ايها الاستاذ . فبالنسبة اليك انها قطعة عادية زهيدة، ولكن قد تكون بالنسبة للشخص المسلوبة منه قطعة ذات قيمة عاطفية كبيرة ... »

فقال الاستاذ وهو شارد اللبّ :

«اجل! هذا صحيح ! فقد يكون لهذه المفكرة السوداء التي امسكها بيدي قيمة كبيرة بالنسبة الى صاحبها — وهو احد تلاميذي القدماء ، افريقي . لقد اختفى من منزله منذ عدة ايام . لقد ذهبت ازوره قبل بضعة ايام فلم يسمح لي بالدخول الى غرفته الا بعد ان اعلنت صفتي كوصيّ قديم عليه . ومن غرفته هذه جلبت هذه المفكرة . ولكني لا اجرؤ بعد على فتحها . يبدو لي ان الانسان شديد الميل الى فتح جميع الابواب التي يراها امامه . اهذه هي الحرية التي تكشف عن الحقيقة للعالم ؟ ان تجاربي كمعلم قديم تسمح لي بان اشكّ في ذلك ، فالاصح القول بان الفضول هو الذي يحاول ان يكشف عن الحقيقة . وسيأتي يوم يفتح فيه الانسان بابا لا يستطيع العودة منه . وهذا بالضبط ما حدث لي . فانا منذ عدة ايام محتار في هل القي او لا القي نظرة على هذه المفكرة . ولكن من جهة ثانية اقول بانها قد تحوي امورا مفيدة قد ترشدني الى العثور على آثار تلميذي القديم » .

وعاد الاستاذ فغرق في تفكير صامت . ولبثت مدام بونيه برهة ، ثم خرجت كما دخلت ، دون احداث اية ضجة .

كان الاستاذ يشعر منرفزا بانه يقوم بعمل حرام، ولكن الفضول والحيرة تفوقا في آخر الامر على تردده . فاخذ يقلب المفكرة الحميمة بيد مرتجفة بعض الشيء . لقد كان يشعر بحرج كبير وهو يقرأ كل هذه التواريخ الموضوعة بازاء اسماء نسائية والى جانبها هذه العبارة: « لقد انصاعت الى ارادتي » . كانت « الارادة » تتحول في بعض الاحيان الى « النزوة » او « الرغبة » او حتى « الشهوة » ، ولكن عبارة « انصاعت الى » لم تتغير .

مما لا شك فيه ان حياة نتوكو العاطفية كانت مليئة ، ولكن ذلك لم يكن ليثير اهتمام الاستاذ كثيرا . فقد كان يفتش عن شيء آخر — دون ان يدري بالضبط ما هو . وراح يتفحص المفكرة بصورة آلية ، ويقرأ اسماء نسائية وتواريخ جديدة . وفجأة رأى على احدى الصفحات كتابات منتظمة مرتبة اخذت تتراقص امام عينيه . فاحس بدقات قلبه تغور ، وركز اهتمامه على ما يلي :

مفكرة نتوكو

وصلت منذ برهة الى باريس — هذا الينبوع العظيم من المياه المقدسة ! اي فرق بينها وبين

افريقيا حيث يدور الزمن بينما يظل الناس عديمي الاكتراث اما بحكم اطباعهم او بحكم القدر. هنا الناس يتهيجون في حين اننا هناك نُحكم علينا المكوث مشرّشين في الارض، كما حكم في الماضي على ثيسيوس. ولكن ذلك لن يظل على ما هو عليه. انهم يعملون على وضع آلات في بطوننا، ليتمكنوا من تعبئتنا وتحريكنا ساعة يشاؤون.

دقة العبيد المتحضرين وتهذيبهم. انني لا استطيع تصور الملوك، الملوك الحقيقيين، ينضوون تحت لوائها.

مقارنة. كان التصوير الشمسي حقل الرؤية عند اسلافنا. اما لدى الشعوب المتقدمة فان حقل الرؤية هو السينما الطموحة المتعطشة الى الآفاق الواسعة التي تضيق عنها شاشتها. فالصورة الشمسية تكتفي متواضعة باظهار جانب بسيط من البحر. اما السينما فانها تطمح الى تصوير المحيط باكمله، دون ان تستطيع في الوقت ذاته اظهار الجداول والسواقي والانهار التي تصب في هذا المحيط.

منذ امد قصير اكتشفت التلسكوبات الحديثة كوكبا قريبا من الارض يدعى مدينة التخاشيب. لا يقاس بعدها عن الارض بسنوات النور بل بمليارات لا تحصى من الفرنكات. من هو الفضائي الاول الذي سيقيّض له النزول على هذا الكوكب ؟

لو كنت الها من آلهة السينما، فاي عظة كنت أوجهها الى العالم ! كنت صنعت فيلما خارقا غير منتمٍ، يسبح خارج فضاء الجاذبية وبعيدا عن وجهات النظر المبتذلة، في فضاء علوي لا زمان فيه ولا مكان. انني دائما احلم بهذا الفيلم الرمزي ذي اللوحات المائية المختلفة.

فاللوحة الاولى تمثل شخصين، الاول مصور والثاني هدف المصور وهو يطيع الاول اطاعة عمياء. حوار. الهدف يقول: « اكاد اعمى من انوار آلتك ! » المصور: « لا بد من ذلك. ففاية حضارتي ان تسلب منك النظر لتضطرك الى وضع نظارات اصنعها في معاملي ». — « واذا لم اضعها ؟ » — « اذاً سيحكم عليك بان تمشي متلمسا طريقك في هذا العالم الجديد الذي استبدل عالمك به ». حوار آخر. الهدف: « علمتني اوضاعا مختلفة، ولكنك تحدد اعمالي وحركاتي. لماذا ؟ » — « لا استطيع ان ابوح اليك على الفور بسرّ الحركة، لانك ساعتها تتملص من سيطرتي. ان شريعتي الآن هي هي. لا تتحرك ! »

وبدون كلل ولا ملل يتابع المصور اخذ رسومه، وهو ينزع شيئا فشيئا ما كان على الهدف

ويجرده من كل ما كان له . الهدف : « انني عارٍ الآن تماما » . — « هذا مقصدي : جعلك في حال لا يعود معه بالامكان استغناؤك عني » .

الاستعمار الغربي في افريقيا هو كفضّ بكارة قاصرة . فليس بدون سبب دعيت هذه الظاهرة بكل وقاحة « الدخول والتغلغل » . وسيذكر التاريخ ان موجة من الشهوة والشبق اكتسحت اوربا في القرن التاسع عشر ، فكان الشاطر من يتغلغل اكثر من غيره . ولم يكن يهمّ اذا كانت الضحية التي تسلب بكارتها بصورة وحشية ، تظل موصومة طول حياتها !

وهم يدعون ذلك « صنع » التاريخ ! من الحق القول ان كلمة « تاريخ » تبدأ بحرف «تاء» الذي تبدأ به كلمة « تجليط » . ايه يا مشعوذي الانسانية !

التشوه الاخلاقي والمكيافيلية — هذان هما رذيلتا العالم الغربي. ولن تكون في المستقبل قط رذيلة اخرى بوسعها ان تقضي على هاتين. لقد جعلوا من الرذائل نتاج تصدير الى افريقيا — بشكل علب جميلة فاتنة ، كعلب باندورا يرسلونها الى افريقيا ، فاذا ما فتحنا هذه العلب انتشرت فيها الاوبئة والامراض التي لم تكن معروفة .

فتشوا عن الانسان هنا ، ولكنكم لن تجدوا الا جماهير . اية مسبة لله ، اتهامه ضمنا بانه لا يحسن الا صنع رجال على نسق واحد .

في البدء خلق الله « الكلمة » . لكن الانسان هو الذي خلق الكلمة . انهار عظيمة حبلى بملايين الامتار المكعبة من الوعود والآمال ، ولكنها لا تصب ابداً في محيط السعادة الشاملة. ميولها الاسبانية نحو الجدال اللفظي والسفسطة حيث يسمع الانسان الكلمات ذاتها دون ان يتبدل وجه العالم كثيرا .

لو قيض لغاليليو ان يعود الى عالمنا لردد عبارته المأثورة: «ومع ذلك فان الارض تدور!» وستكون عبارة « ومع ذلك » مليئة بالمعاني . وستعني فيما تعنيه : « اجل ، ولكن في اي اتجاه ؟ » بالامس كانت افريقيا مملكة جلالة تنبل الاول، جالسا على عرشه (كرسي هزاز) . ولكن الغرب الصناعي يحتوي على عدد من التنابل (الاغنياء) يفوق كل عدد ! فهم يكملون سلالة الملوك التنابل على متكآتهم .الغرب يسير بدوره بخطى واسعة نحو قانون الجهد الاقل : اسبوع العمل المخفض ، سيطرة الآلة ، الخ .

ما اكثر ما وجدت من بشاعات منذ وصولي الى باريس! الامر الذي يثير فيّ شعورا مطمئنا.

ان الاله قد سقط عن قاعدته . وللتأكد من ذلك ينبغي جمع البراهين . موضوع لا يصلح لفيلم . لرواية ؟ اخشى انه ليس لديّ الصبر على كتابة رواية . كتاب كهذا يجب ان يكتب بلغة عادية ، ولكن بلغة همّها ان تحطم ما يسمى بالقوة المادية لهذا الاله الممسوخ . بكلمات مشحونة بنور كشاف فضاح . ولكن مع الاسف اخشى الا اعثر على كلمات كهذه . التصوير بامكانه ان يقوم مقام ذلك . فاذا لم يستطع بلوغ الحقيقة فعلى الاقل يستطيع الاستحصال على صورة طبق الاصل لهذه الحياة البشعة . خذ اكداسا من الاناس الذين سقطوا في الآبار. الا يستعمل الاوربيون هذه الطريقة عندنا ؟ فهم لا يصورون الا الافريقيين المرتدين اطمارا ، الافريقيين الملطخين المكشرين -- وهم اصلح للتصوير على ما يظهر .

المثل الاعلى هو الحصول على صورة مركبة لهذا العالم الذي يتخبط في اوج الفساد .

كان باستطاعتي ان ارجع بعد انهاء علومي الى بلادي حيث كانت وظيفة رفيعة بانتظاري. بدلا من ذلك ، اصبحت هاربا من مجتمعي. لماذا؟ لاني لا احسن الانخراط في المجتمع، على ما اظن . هذا الخجل المرضي الذي ينبغي اخفاؤه وراء قناع من القسوة . انني اخاف . هل انا مخلوق عجيب ؟ اشعر دائما باحساس غريب من الهياج غير الاعتيادي والفرح الوحشي كلما صورت حادثا مميتا. وان الجراح الرهيبة والدمار الفظيع يجعلانني اشعر شعورا غامضا بالثأر . انه لشيء مخيف . وكل مرة كان يحدث لي ذلك كنت اغرق هذه الازمة بفيض من الكحول . في نفسي مستر هايد يدوس بجزمته الدكتور جكيل . ليس باستطاعتي عمل شيء ، ومن المستحيل ان اقاوم هذا الامر . ان ذلك بالنسبة اليّ كغرفة سوداء ، لا ادري اين بابها . باريس ذاتها لم تعد الا سجنا لي وانا سجان نفسي ...

* * *

وتوقفت الفقرات عند هذا الحد . وفجأة التمعت في ذهن الاستاذ فكرة . واخذت عبارة « وانا سجان نفسي » تدور في رأسه دورانا مجنونا: لقد فهم بان نتوكو لم «يختف» من غرفته ، بل انه على العكس ما يزال فيها — وقد تخلص على الارجح والى الابد من العبء الثقيل الذي ناءت به حياته القصيرة . وتذكر جملة للكاتب زفايغ :

«ان الحكم على كائن تملّك منه الهوى لهو خالٍ من اي معنى كما لو كنت تطالب عاصفة بان تبرر ذاتها، او تقيم دعوى على بركان ».